في الأدب الفرنسي

زهرات من حديقة أبيقور

الحقيقة

هذه الحكمة اليونانية القائلة : « إعرف نفسك بنفسك » ، هي لعمري طيش شديد وجهالة كبرى ! ! فلن نستطيع أبدا أن نعرف نفوسنا ولا نفوس غيرنا من البشر . وانه ليغنى التيقن من ذلك والايمان به ، فان خلق العالم أدنى صحة وأقل استحالة وأكثر امكانا من فهمه وعرفانه . لقد شك بها « هجل » يعض الشك ، ومن القريب المحتمل أن يخدعنا العقل في يوم من الايام بابداع كون جديد ، فأما الكشف عن مفهوم هذا الكون وتبين كنهه فذلك ما لا سبيل اليه ، ولا قدرة لأحد عليه . والاولى بنا أن نسيء استعمال العقل ونمعن في الجور وسوء التصرف به ، بدلا من أن نتخذه آلة لتحري الصواب ومعرفة الحقيقة . وحتى استخدامه للحكم والقضاء كما يتطلب العدل ويرتضيه الناس فانه ضعيف ضئيل لا يجدى نفعا كبيرا ، وانما يصلح العقل للتسلي بذلك الملاهي ، وهي أكثر تعقيدا وغموضا من الشطرنج ، المسماة ميتافيزيك . . علم الاخلاق . . علم الجمال ، ولعله جدير بالرضى والاعجاب حين يقتطف من هنا وهناك قليلا من النتوء أو بعضا من الوضوح في الاشياء ، ثم يتمتع بألوانها وأصباغها من غير أن يفسد تلك اللذة البريئة الخالصة بالتفكير الكلي الشامل والاندفاع وراء الحكم والقضاء .

ادب الحياة

مادام معنى الجمال لا يدرك مستقلا عن حدود الزمان والمكان فاني لا أشرع في استساغة آثار الفكر والتلذذ بمنسوجات العقل الا حين أكشف عن وجه اتصالها بالحياة ولصوقها بها ، وهذه الصلة هي التي تجذبني اليها وتأسرني على قراءتها . فجرار هيارليك الضخمة حببت الى « الالياذة » كثيرا ، واذا كنت أتذوق « المهزلة الالهية » وأسيغ حلاوتها جيدا ، فلأني أعرف حياة فلورنسا ، وأدرك الحال التي كانت عليها هذه المدينة في القرن الثالث عشر . أنا لست أقتش في الفنان الا عن صورة الانسان ! وما عسى أن تكون القصيدة الجميلة الرائعة غير البقية الباقية من جثمان الشاعر ؟ اليك هذا القول العميق يرسله جيته : « الآثار التي تخلد دون غيرها انما هي آثار الظروف والاحوال » ، ولكن الآثار الفنية لا يمكن أن تكون الا آثار الظروف والاحوال ، لانها انما ترتبط جميعها بالمكان والزمان اللذين أبدعاها وكونا عناصرها . ولسنا نستطيع تفهمها ولا محبتها اذا كنا نجهل الزمن الذي أنشئت فيه والمكان والشروط الاجتماعية التي أحاطت تكوينها .

الحق أن البلاهة المتعاظمة الصلفة انما تبرز في القول بالانتاج الفني المستقل . فالثمن الذي يدفع غاليا للمؤلفات الرفيعة العالية انما هو ثمن العلاقات التي تربطها بالحياة . وانا كلما تبينت هذه العلاقات وكشفت عن قوتها اشتد هيامي بالاثر الفني أستسيغه وأستمرئه

القمار

يلعب المقامرون كما يحب العشاق ويسكر الشراب مرغمين مجبرين . يلينون لقوة رائعة لا تقاوم ، ويستكينون للنوازع الجامحة العمياء ! وفي الناس من وقف نفسه على القمار ونذرها للعب ، على نحو من يقف نفسه على الهوى ويتذرها للتصابي والغرام . ولست أدري الذي ابتدع قصة ذينك الملاحين المقامرين تذيبهما نيران اللهو ؛ كاد الملاحان يغرقان ثم طوحا بجسميهما وسط المغامرات الخطيرة ، ولم ينجهم من الموت المحتوم غير الطفرة الى ظهر حوت ، فما لبثا ان انتزعا من الجيوب الزهر والفنجان ، ثم راحا يلعبان !

هذه القصة أصح من الحقيقة وأشد منها ثبوتاً ، وكل مقامر مدنف انما هو ملاح على طراز من ذكرنا . والواقع ان في القمار معنى من معاني الرهبة ، يهز أعصاب الشجاع ، ويثير في نفسه الوان الاضطراب والقلق . فليس اختبار الحظ غبطة يسيرة معتدلة ، وليس ارتشاف حياة طويلة عريضة ذات أشهر وسنين مليئة بالخوف والرجاء ، بالألم والأمل — ليس ارتشافها في هنيهة من الزمن لذة ضعيفة هامدة لا تشمل ! أذكر اني كنت دون العاشرة من عمري حين قرأ علينا المسيو غريبيني ، استاذ الصف التاسع ، حديث الانسان والبيئة . وبالرغم من طول البعاد وتقادم العهد ، فاني ما زال أعيه وأتمثله كأنما هو حديث الأمس القريب : إن جنية ماكرة

دفعت الى طفل صغير خيطاً طويلا قدلف فى انتظام حول نفسه ثم قالت له « هذا خيط عمرك فالمسه ، وحين تريد ان يمضى الزمن لتستشرف له وتحيا فيه ، فاشدد الخيط فان الأيام والليالى سوف تمر أمام ناظريك وتكر متتابعة فى إسراع او بطء حسبما تشد الخيط فى قوة أو فتور . وما دمت لاتجذب هذا الخيط فانك تبقى من الوجود فى الساعة التى أنت فيها » . فأخذ الطفل الخيط الملفوف فجره قبل كل شىء ليفلت من طور الطفولة ويغدو رجلا رشيداً ، ثم جره ليتزوج ممن أحب ، ومازال يجره حتى رأى أولاده تنمو ، ونفسه تبلغ أسنى المراتب ، وتنال المال الوفير والمجد الرفيع ؛ ثم جره ليجتاز آلام الشيخوخة ويجتنب ثقل وطأتها وامراضها . . وأسفاه على هذا العود الأملد النضير ! لقد عاش الطفل أربعة أشهر من بعدها ستة أيام على زيارة الجنية له :

لعمرك قل لى ماحد القمار اذا لم يكن الفن الذى يستبق أحداث الطبيعة العاقلة ، ويشد تقلبات الأقدار المتشدة التى لاتبرز الا فى سنين وسنين ! أليس القمار هذا الفن العجيب الذى يجمع فى لحة من الزمن مختلف الاهواء والميول المنتشرة بين حياة الناس البطيئة الراكدة ؟ بلى ! إنه سر الوجود ومعنى الحياة نتذوقها فى مدى ضئيل من الثوانى القصار ، فهو يطاول القدر ويسايره جنباً لجنب ، ولعله يشبه صراع يعقوب مع الملك ، اوميثاق الدكتور « فوست » مع الشيطان .

المال مادة القمار ؛ ونقصد انه العلة الضرورية المباشرة ، ومن يدرى ! لعل الورقة التى تستبطن ، او الكرة التى تتدحرج ، تنفح المقامر اللاعب بالحدائق الجميلة ، والحقول المزروعة ، والاحراج الفخمة ، والقصور المشيدة تشق السماء ابراجها الدقيقة . هذه الكرة المتدحرجة انما تضم فى اطوائها الاراضى الخصبة الواسعة ، والدور العامرة تلمع مداخنها المنحوتة فى مياه اللوار ، إنما تضم كنوز الفن وعجائب الذوق ، وجواهر غالية طريفة ، ونفوسا كان يظن ان ليس الى بيعها من سبيل . وعلى الجملة تضم مطارف الزينة والمجد ، وشديد القوى ونافذ الأسلحة ، ماذا أقول ؟ انها تضم شيئاً اثمن من هذا كله بكثير : تضم الأمانى والأحلام ، أفتريد بعد هذا الا يلعب المقامرون وألا يلهو الهازلون .. ؟؟ ولو أن القمار لا يبعث غير الآمال الكبار ولا يبدى الا بسمة عينيه الخضراوين ، لكان الميل اليه خفيفا نحيلا ، ولكنها اظافره مصنوعة من ماس ، يروع ، ويخلع البؤس ان شاء ، والحياء حين يريد .. ومن هنا كان القمار إلهاً تقدم له فروض الطاعة ومراسيم العبادة .

يكمن الخطر فى الأهواء الملحة العنيفة ، أرأيت غبطة شديدة ليس يصحبها خمار أو يعقبها دوار . وانما تكدر اللذة قد خالطها الفزع ، وهل يخيف شىء فى الوجود أكثر مما يخيف القمار ؟ اذا أعطى أدهش ، واذا أخذ فتش . منطقه بيان منطقنا ، فهو اصم وأبكم وأعمى ! قاد على كل شىء كالآله ، له عباده وقد يسوء الذين يحبونه لذاته لا لثوابه ؛ وأكثر مايعبدونه حين ينزل بهم عذابا إليا . وقد يعريهم مما يلبسون ، فيعزون النقص اليهم دونه ، ثم يقولون (لقد اخطأت كثيراً فى لعبى)

وارحمتاه لهم ! يتهمون أنفسهم ثم لايكفرون .

حمص — محمد روحى فيصل

عدد ممتاز

من الرسالة

فى ثمانين صفحة

تصدر الرسالة لمناسبة حلول السنة الهجرية الجديدة عددا ممتازا فى ثمانين صفحة من حجمها المعتاد ، مشتملا على عدة مباحث فى التاريخ الاسلامى والأدب العربى باقلام أكابر الكتاب المحققين ، والادباء فى مصر والشرق العربى